الكوارث الطبيعية وتأثيراتها في الحيوانات خلال القرنين (4-5هـ/ 9-10م).

أة. نوال بلمداني

جامعة معسكر

أثرت الكوارث الطبيعية على القطاع الفلاحي بشكل كبير، بفعل الاضطرابات المناخية الفجائية أو الدورية، التي لا دخل للإنسان فيها ولا قدرة له على ردها؛ فالمغرب الأوسط تعرض لتقلبات مناخية كباقي بلاد المغرب الإسلامي، وكان لذلك أثره الكبير على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن بين هذه الكوارث: الجفاف أوالقحط الذي يجعل الحاجة ماسة إلى الماء بالنسبة للنبات والحيوان، بحيث تغدو الأرض قاحلة لا نبات فيها ولا ماء، الأمر الذي كان يدفع بالأفراد إلى اتخاذ تدابير وحلول منها التوجه صوب المتصوّفة ذوي الكرامات، وفي هذا يقول التادلي: "حدثوا عنه – أبو زكريا يحيى بن يوغان الصنهاجي- أن أهل تلمسان قحطوا فاستسقوا به فسقوا" (ابن الزيات،ت. 2006م: 102)، أو اللجوء إلى العبادات "كالصوم، وهذا ما فعله أهالي مدينة أجلو بالقرب من وادي ريغ لما أضر أضرهم الجفاف في جناتهم، وآذى الكثير منهم، واقتضى نظرهم أن يجتمعوا ويصوموا يوم الأربعاء والخميس والجمعة" (الدرجيني،ع. 1974م: 440).

ومن الأمثلة الدالة على خطورة الجفاف الشدة العظيمة التي لحقت بالبلاد سنة 395هـ/ 1005م، وكانت من الفظاعة حتى "انكشف فيها الستور، وهلك الفقير، وذهب مال الغني، وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات، وجلي أهل البادية عن أوطانهم... ومع هذه الشدة وباء وطاعون، وهلك أكثر الناس من غنىّ ومحتاج... وكان الناس يوقدون

أبواب بيوتهم وخشب سقوفهم" (ابن عذاري،م. 1980م: 257)، إذن النص يشير إلى أن النتائج السلبية المترتبة عن حالة الجفاف عديدة، منها ارتفاع الأسعار، ندرة الطعام، هجرة الأهالي، موت بعضهم، ضف إلى ذلك انتشار الأمراض، كالأوبئة والطاعون التي لم تفرق المصادر التاريخية بينهما، في حين كان مفهوم الوباء في الاصطلاح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، أي أنه يشمل أمراضا عديدة من بينها الطاعون (ابن القيم،ج. 1986م: 38)، وهو من الأمراض البكتيرية التي تحدث في الزمن الوبائي، كما انه مشترك بين الإنسان والحيوان (الأنطاكي، د.ع. 2001م: 335).

وتصور لنا العديد من المصادر التاريخية خطورة الأوبئة، والنتائج المترتبة عنها، في سنة 285هـ/ 542م عمت المجاعة الشديدة جميع بلاد الأندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا، ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير، هلك فيه من الناس ما لا يحصى (ابن أبي زرع. 1972م: 97)، ولا نستثنى المغرب الأوسط من هذه الكارثة، لأنه قريب جغرافيا من المغرب الأقصى، وهذا ما قد يسهل انتشار المرض، خاصة مع الهجرة التلقائية للقبائل الرعوي من مكان لآخر، وفي سنة 303هـ/ 916م وقعت مجاعة عظمية شبهت بمجاعة عام 260هـ/ 874م ، "بلغت فيها الحاجة مبلغا لا عهد للناس بمثله، وصل القمح ثلاثة دنانير ووقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم" (ابن أبي زرع. 1972م: 98)، وانتشر الوباء مرة أخرى سنة 344هـ، ولم يقل وطأة عما تقدم من الأوبئة، إذ هلك فيه خلق عظيم (الناصري، السلاوي. 2007م: 153)، كما ضرب قحط شديد المناطق سابقة الذكر سنة381هـ/ 991م، جفت من أجله المياه جفوفا كثيرا (ابن أبي زرع. 1972م:111)، ليتبع بمجاعة شديدة دامت ثلاثة سنين (ابن أبي زرع. 1972م: 115).

وفي سنة 407هـ/ 1017م "كان بالمغرب والأندلس وإفريقية قحط شديد ومسغبة عامة ووباء كثير"(ابن أبي زرع.1972م:118)، إذن ظاهرة الجفاف اتسعت على نطاق واسع، شمل الأندلس وبلاد المغرب بأقاليمها الثلاث (الأقصى، الأوسط، الأدنى) وحتى إفريقية، وتبعت بمجاعة حادة مست الغني والفقير، وهذا ما توضح عبارة "مسغبة عامة"، ليتطور الوضع بتفشي الوباء القاتل.

صفوة القول، إنّ تذبذب الأمطار وعدم تساقطها يؤدي إلى سيادة الجفاف وظهور مجاعات وأوبئة تودي بحياة الإنسان والحيوان معا، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الاستقرار، والتنقل الدائم بحثا عن ظروف معيشية أفضل، توفر الضروري من الماء والكلأ، ناهيك عن تلك الصراعات القبلية بسب المناطق الرعوية ومنابع المياه، وهي ظاهرة معروفة بالمغرب الأوسط، خاصة لدى البدو الرحل، الذين يجوبون الفيافي ويتنقلون عبر الصحاري بحثا عن مكان مناسب لأنعامهم ومواشيهم.

وتجنبا لمخاطر هذه الظاهرة على الإنسان والحيوان معا تم اتخاذ مطامير وخوابي وأهراء، لتخزين الحبوب والمواد اللازمة للضرورة الملحة، مثلما فعل الخليفة الفاطمي "القائم بأمر الله" إذ أمر عامله علي بن حمدون بأن يدَخَّرَ الأقوات وأنواع المأكولات، وكل ما تنضم إليه الضرورة بمدينة المسيلة، ففعل ذلك، "وزاد فاحتفل... وكان إذا ارتفعت الأسعار، واغبت الأمطار، يكتب إلى أبي القاسم، وهو ولي عهد أبيه يخبره بذلك و... يستأذنه في البيع"(ابن حماد،ص. 1984م: 25)، والنص يعكس العلاقة بين التساقطات وتأمين الغذاء للإنسان والحيوان؛ فالجوائح والأزمات كانت تترك أثرا على الإنتاج الفلاحي الذي يُعْتَبَرُ عصب الحياة الاقتصادية، فترتفع الأسعار ويعم الغلاء، خاصة بالنسبة لمادة العلف، إذ يصبح

أصحاب الدواب غير قادرين على توفير الكمية الضرورية، مثلما حدث مع الخليفة الفاطمي المنصور أثناء حصاره لأبي يزيد مخلد صاحب الحمار سنة 335هـ/ 947م، الذي فر منه متوغلا في الرمال، فلحقه الخليفة حيث قصد من الأوطان، وسلك بجيوشه مواضع لم يسلكها جيش قط (عماد الدين،إ. 2006م: 403)، وكان الموضع صعب المسالك، و"بلغ الضر من العسكر مبلغا عظيما، وبلغ بهم الجهد، ويأسوا من خلاص الخيول، فلم يكن همّ كلّ امرئ منهم غير نفسه، وعدم العلف في ذلك المكان. فقيل إنه بلغ ما تحتاج إليه الدابّة من الشعير دينارا ونصف دينار من الذهب، وقفيز الزيت دينارا. وماتت أكثر الخيل والجمال، ولم يكن لها ما تقتاته سوى الحلفاء"(عماد الدين،إ. 2006م: 404).

كما شكل الجراد آفة طبيعية خطيرة على الإنسان وموارده، ذلك بهجومه المفاجئ بأسراب عديدة على الغطاء النباتي اليابس والأخضر، وغالبا ما يتسبب في مضاعفات سلبية وفي مقدمتها المجاعات والأمراض، خاصة في المناطق الصحراوية وهي البيئة المواتية لاستيطانه لمناخها الحار (عبد الهادي،ب. 2008م: 63)، كما أنها البيئة المواتية للرعاة الرحل، ومن بين سنوات انتشاره بالمغرب سنة 361هـ/ 672م (ابن أبي زرع. 1972م:101)، وفي سنة 377هـ/ 988م فتك بها (ابن أبي زرع. 1972م: 102)، و خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري كاد يتلف أحدى ضياع وادي أريغ (الشماخي، 2009م: 574)

والجدول أدناه يوضح لنا أنّ اكتساح الجراد يكون مصحوبا بالغلاء والمجاعة مما يؤدي إلى تفشي الوباء، أي ضرره لا يختلف عما يخلفه الجفاف، كما أن أكله للزرع يعكس معاناة الحيوان ومصارعته للجوع، وندرة الأقوات وغلاء الأسعار، خاصة إذا علمنا أن الجـــــراد "إذا رعت أيام الربيع

طلبت أرضا طيبة التربة رخوة، ونزلت هناك وحفرت بأذنابها حفرا وباضت فيها كل واحدة مائة بيضة إلا بيضة وطارت،وآفتها الطيور والبرد، فإذا حلّ فصل الربيع واعتدل الزمان يفقس ذلك البيض المدفون، ويظهر مثل الذباب الصغار على وجه الأرض، وأكلت زرعها حتى قويت، ثم تنهض إلى أرض أخرى وباضت كما فعلت في عامها الأول وهكذا دأبها" (القزويني،1981م: 470. 471)؛ فللجراد قدرة فائقة على نثر بيضه في أماكن متعددة وبسرعة وكمية قياسيتين، مما يجعل من الصعب حسم دابره واستئصال شأفته بوسائل بدائية لا تتجاوز الجمع والحرق، إلى جانب بعض الوصفات الغريبة من أدبيات الطلاسم والشعوذة (عبد الهادي،ب. 2008م: 63).

وإذا السماء بخلت في بعض السنين بمائها يكون القحط، وإن جادت في سنين أخرى وتهاطلت الأمطار الغزيرة يحدث الفيضان، نتيجة اجتياح كميات هائلة من المياه للأرض، فتتسبب في إغراق الأراضي الزراعية وإتلافها، و تهديم الجسور والقناطر وإغراق بعض المساكن وتهديمها، وتكون عواقبها على الدواب التي تعيش في زرائب غير مغطاة أو محمية، ومن هذه الأمطار الطوفانية تلك التي هطلت على أبي القاسم سنة 315هـ/ 927م، ويحدثنا عنها عماد الدين إدريس قائلا: "وتوالت الغيوث والأنواء والأمطار وكثر الوحل، فسمّى الناس ذلك المناخ مناخ الوحل"(عماد الدين،إ. 2006م: 218)، ويوضح ابن عذاري الصورة قائلا: "...وتوجه إلى مدغرة، ثم إلى سوق إبراهيم. فأقام في تلك الجهة أكثر من شهر، لكلب الشتاء وكثرة الوحل" (ا.ع. 1980م:191)، ويضيف أن القائم كتب إلى المهدي يخبره "أنّه أقام في مناخ واحد شهرًا كاملا، عليه المطر كلّ يوم بالغدو والآصال"(ابن عذاري،م. 1980م: 192)، والمياه الغزيرة تنجرف

مهددة كل شيء في طريقها، فيتعذر الاستيطان على الضفاف وتنعدم القدرة على استغلال قواها (جمال؛ص.2006م: 53).

ومن التقلبات الجوية الأعاصير وما يتبعها من اضطرابات، والتي كانت سببا في إحداث الأضرار الجسام في الأرواح وممتلكات الناس وحيواناتهم، ويمكن استنتاج نسبة الضرر الذي ألحقته بالثروة الحيوانية من خلال بعض النصوص التاريخية، ففي سنة 355هـ/ 966م "كانت ريح شديدة قلعت الأشجار وهدمت الديار وقتلت الرجال" (الناصري،س.2007م: 161)، وفي سنة 379هـ/ 990م "كانت الريح الشرقية بالمغرب ودامت ستة أشهر فأعقبها الوباء العظيم، والأمراض الكثيرة" (ابن أبي زرع. 1972م: 102)، لتتبع بعد ثلاثة سنوات 382هـ/ 992م بريح شديدة هدمت الديار بالمغرب وأفسدت الثمار (ابن أبي زرع. 1972م: 116)، وأكثر هذه العواصف خطورة تلك التي ضربت المغرب الأوسط سنة 485هـ/ 1092م، وقوتها الهائلة هدمت المباني بمدينة تلمسان وأحوازها واقتلعت الأشجار العظام ونظر الناس إلى البهائم تمر بين السماء والأرض (ابن أبي زرع. 1972م: 120).

ولم يقل ضرر البرد عما سبق ذكره من كوارث، خاصة بالنسبة لبعض المحاصيل الزراعية، كالشعير والقمح، وهما من أكثر المواد استهلاكا بالنسبة للثروة الحيوانية ، مثلما حدث سنة 339هـ/ 951م إذ "نزل برد عظيم كبير الحجم، زنة الحجر رطل وأزيد، قتل الطير والوحوش والبهائم وطوائف من النّاس وكسر الثمار والشجر وكان ذلك إثر قحط شديد وغلاء عام"، حتى وإن كان هناك مبالغة في وزن حبة البرد، إلاّ أن شدة التساقط أحدثت خسائر جسيمة بالنسبة للحيوانات، الأليف منها والمتوحش، أي الغير محمية داخل الاصطبلات، ونفس الخسائر وقعت سنة

342هـ/ 954م إذ "نزل برد عظيم لم يعهد مثله قتل المواشي وأهلك الثمار... "(ابن أبي زرع. 1972م: 100)، وهذا ما يؤكد الفكرة السابقة، بمعنى أن ضرر البرد لحق بالزرع والمواشي التي تعيش في الغالب بالعراء محاطة بسياج من الأشواك، والآثار السلبية المترتبة عن ذلك تختلف باختلاف مدة استمرارية هطوله وحجم حباته، ولم تختلف عنه العواصف الثلجية، فالمنصور الفاطمي ثنى أعنّة خيله وقصد أقرب المواضع التي فيها العمارة، وهي بلد صنهاجة، واجتاز في طريقه على المياه المالحة والجبال الوعرة، (ابن أبي زرع. 1972م: 116)، أين "أصاب الناس في ذلك اليوم ثلج واشتد عليهم بالليل وتراكم على الأخبية والفازات حتى تكسرت أعمدتها ...وانفتحت السماء بالسفح الهاطل" (عماد الدين،إ. 2006م: 404).

وهناك كارثة أخرى تتسبب في خسائر مادية وبشرية عند حدوثها، بتدميرها للمباني وقلع الأشجار، وتشقق وانكسار في التربة الأرضية وتغير المياه الجوفية (جمال،ص. 2002م: 29)، إنها الزلازل، التي خلفت هزاتها العنيفة دمارا شاملا خص الإنسان والحيوان والعمران، مثلما حدث سنة472هـ/ 1080م، حيث كانت الزلزلة عظيمة لم ير الناس بالمغرب مثلها "هدت البنيان ومات فيها خلق كثير تحت الردم، ووقعت الصوامع والمنارات، ولم تزل الزلزلة تتعاقب وتتكرر في كل يوم وليلة من أول يوم من الربيع الآخر إلى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة﴾ (ابن أبي زرع. 1972م: 168).

***جدول عن بعض الكوارث الطبيعية التي مست المغرب الأوسط على غرار باقي مناطق بلاد المغرب:**

تاريخ الكارثة	نوع الكارثة	مكان الكارثة	نتائجها	المصدر
260هـ/ 874م	وباء عظيم مع غلاء السعر وعدم	بلاد الأندلس والمغرب	مات خلق عظيم	روض القرطاس، ص97

	الأقوات			
303هـ/ 916م	مجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة 260هـ	إفريقية والمغرب والأندلس	وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم	روض القرطاس، ص97. الاستقصا، ج3، ص151
307هـ/ 920م	رخاء مفرط، وطاعون ووباء كثير	إفريقية والمغرب والأندلس		الاستقصا، ج3، ص152
344هـ/ 956م	وباء	المغرب والأندلس	هلك خلق عظيم	الإستقصا، ج3، ص153
361هـ/ 972م	الجراد	المغرب		روض القرطاس، ص100.
377هـ/ 988م	الجراد	بلاد المغرب	فتك بها	روض القرطاس، ص101.
378هـ/ 989م	الفيض	جميع أودية المغرب		الإستقصا، ج3، ص161.
381هـ/ 991م	قحط شديد	بلاد المغرب والأندلس وإفريقية	جفت من أجله المياه	روض القرطاس، ص111
381هـ/ 991م	مجاعة شديدة	افريقية والأندلس والمغرب		روض القرطاس، ص115
406هـ/ 1016م	الجراد	إفريقية والمغرب	غلاء	ابن الأثير، ص1358
411هـ/ 1021م	قحط	بلاد المغرب من تيهرت إلى سجلماسة	كثر الفناء في الناس	روض القرطاس، 118

الإستنتاج:

عرف المغرب الأوسط كوارث عديدة بين عامة وخاصة، كالجفاف والمجاعات والأوبئة....، تم ذكرها ضمن المصادر التاريخية، وهذا ما يوضحه

الجدول، والغالب عليها التعميم، وهذا ما جعلنا نعتمد المقاربة من أجل التوصل إلى أهم الكوارث التي أصابت الحيوانات، وكذا التعرف على النتائج المترتبة عنها؛ فالتقلبات المناخية والكوارث الطبيعية هددت حياة الحيوانات، وكان الجفاف هو الأكثر خطورة، لأن مدته تطول لأكثر من سنة، وقد يتكرر عدة مرات خلال قرن واحد، فينذر نبات الأرض- المزروع والطبيعي-، وكثيرا ما يضطر الأفراد إلى تناول بعض الأعلاف الحيوانية، وقد تدفعهم الأزمة الحادة إلى أكل لحم الميتة، إذن كيف سيكون وضع الحيوانات في هذه الحالة؟، خاصة وأنها لا تستطيع تدبر أمورها في غالب الأحيان دون تدخل الإنسان من أجل توفير الضروري لها، وما يزيد الوضع سوءا إلى جانب المجاعات هو انتشار الأمراض والأوبئة، خاصة إذا تبع ذلك بزحف أسراب الجراد.

صفوة القول، إن الماشية والدواب عانت كثيرا من نزوات الطبيعة بسب تذبذب عملية التساقط، وما يترتب عنها من كوارث، أو انتشار العواصف الثلجية وغيرها، وتأثرت بها بنفس القدر الذي تأثر به الإنسان أو أكثر، مما جعل الرعاة في بحث دائم عن المرعى، وفي حركة انتجاع ذهابية- إيابية بين الصحراء والسباسب من جهة والمناطق التلية من جهة ثانية، والتقلب المناخي في بلاد المغرب عامة يختلف من جهة إلى أخرى، ولهذا تتفاوت في تأثرها بظاهرة القحط والمجاعة مما يؤدي إلى تحرك القبائل من الجهات المتضررة إلى الجهات الأقل تضررا أو الجهات التي لم تتعرض لمشكلة الجفاف أو الجراد أو العواصف أو الفيضانات.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، د/ ت، الكامل في التاريخ، د/ ط، الأردن، بيت الأفكار الدولية.
-الأنطاكي، داود عمر، 2001م، بغية المحتاج في المجرب من العلاج، ط1، بيروت، دار الفكر.
-ابن حماد، الصنهاجي، 1984م، أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، د/ ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الدرجيني، أبو العباس، 1974م، طبقات المشايخ بالمغرب، د/ ط، قسنطينة، مطبعة البعث.
- ابن أبي زرع، 1972م، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د/ ط، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة.
- ابن الزيات، 2006م، التشوف إلى رجال التصوف، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
-الشماخي، 2009م، السير، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي.
- ابن الصغير، 1986م، أخبار الأئمة الرستميين، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- ابن عذاري، المراكشي، 1980م، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط2، بيروت، دار الثقافة.
- عماد الدين، إدريس، 2006م، تاريخ الخلفاء الفاطمين بالمغرب- القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- القزويني، 1981م، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
- ابن القيم، الجوزية، 1986م، الطب النبوي، ط13، بيروت، مؤسسة الرسالة.

المراجع:

- البياض، عبد الهادي، 2008م، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوكات وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس –ق6- 8هـ/ 14م، ، ط1، بيروت، دار الطليعة.
- جمال، صالح، 2002م، السلامة من الكوارث الطبيعية والمخاطر البشرية،ط1، القاهرة، دار الشروق.
- الناصري، السلاوي، 2007م، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.